النظرية النقدية والولوج إلى ما بعد الحداثة

✍ أ. عبد الحميد الميلود
باحث وأستاذ بقسم الفلسفة
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

ملخص:

لقد استطاعت مدرسة فرانكفورت (L'école de Francfort) أن تطرح مسائل نقدية عميقة في إطار نقدها للعقل الأداتي، و صناعة الثقافة واستلاب الوعي واغتراب الإنسان، وتشيء المعرفة وتحول التجربة الجمالية إلى سلعة، وكل هذه المسائل ستكون مرجعا هاما في نقد ما آل إليه الفكر الغربي والوضع الإنساني عامة، لقد صار لزاما على العالم كله أن يمر عبر مصفاة الصناعة الثقافية، كما أن الهيمنة قد أضحت أكثر حدة من أي وقت مضى، ذلك أن الإمكانات المادية والذهنية للمجتمع الصناعي المتقدم تفوق بكثير ما كانت عليه المجتمعات السابقة مما يكشف على أن الهيمنة ستصبح بنفس درجة التفوق، فهيمنة المجتمع على الفرد في المجتمع الصناعي المتقدم أعظم بكثير في استراتيجيات الهيمنة وأساليب القمع وعقلانية التوجيه التي في أساسها لاعقلانية.

الكلمات المفتاحية: النظرية النقدية، مدرسة فرانكفورت، الهيمنة، استراتيجيات الهيمنة، المجتمع الصناعي.

Abstract:

The Frankfurt school has been able to pose profound critical issues in context of instrumental reason and dispossession of consciousness with industry culture. The knowledge and the aesthetic experience transformation turned into commodity, so all these questions will become an important reference in the criticism of humanitarian situation and western thought or occidental civilization. It becomes necessary for the world to go through the refinery of the cultural industry so the

hegemony has become harder than ever the main cause is that the mental and the material resources of industrial society are very advanced comparative with the previous communities. For that we can notice that the hegemony will be the same as success.

As a conclusion the Hegemony strategy is very high for individual at this advanced industrial society.

Key words: Critical theory, The Frankfurt school, The domination, The Hegemony strategy, Industrial society .

مقدمة:

بداية ليس من السهل أن نقف عند كل المحطات الفكرية لمدرسة فرانكفورت (L'Ecole de Francfort) أو ما يطلق عليه " النظرية النقدية "، فمن جهة تتعدد الأسماء التي تدمج في هذا التوجه:"ماكس هوركهايمر"(1895-1973)،"ثيودور أدورنو" (1903-1969)،"وولتر بنجامين "(1892-1940) و " إريك فروم " (1900-1979)،"هربرت ماركيز "(1898-1979)،جورج لوكاش (1885- 1971)، حتى أعمال "يورغن هابرماس"و" أكسيل هونيث " مثلا توصف بأنها ترتبط بهذه المدرسة وإن كانت أعمالهما تقدم نقدا قويا لممثليها الأوائل - وعلى هذا الأساس فمن جهة تتعدد الأسماء التي تدمج في هذا التوجه، ومن جهة أخرى تتنوع اهتمامات مفكريها –مع بعض الاختلافات الداخلية الملموسة وبالتالي من الصعوبة أن نتحدث عن النظرية النقدية بصيغة عامة وموحدة .

مدرسة فرانكفورت هي حركة فكرية نشأت بمدينة فرانكفورت سنة 1923، بدأت الحركة الفلسفية في معهد الأبحاث الاجتماعية بالمدينة ثم هاجرت إلى جنيف سنة 1933 مع وصول "هتلر" للحكم في ألمانيا، ثمّ إلى الولايات المتّحدة أثناء الحرب، قبل أن تعود مجدّدا إلى ألمانيا في بداية الخمسينيات، وعلى الرغم من الاختلافات الكثيرة التي تطبع هذه المدرسة- يمكن أن نذكر أيضا أن البعض لم يكن ينتمي إليها بصفة رسمية - إلا أن هناك بعض القواسم المشتركة التي تجمع مفكريها كنقد ما هو قائم في

المجتمع الصناعي المتقدم والوقوف عند ارتكاسات المشروع الحداثي في تجلياته المختلفة، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ماذا يخفي هذا العصر الذي يتحدث عنه "إريك فروم "و"هربرت ماركيز"، " ثيودور أدورنو " و"ماكس هوركهايمر"، "جورج لوكاش" و"وولتر بنجامين "؟

الحداثة وعود كاذبة :

في مقدمة كتاب " جدل التنوير " يتساءل " هوركهايمر "و" أدورنو " : " كيف أن الإنسانية بدل أن تلتزم بشروط إنسانية حقة سرعان ما راحت تغرق في شكل جديد من أشكال البربرية "[1]، هذا السؤال الجوهري الهام شكل مسعى النظرية النقدية في محاولة " إنقاذ العقل من نفسه "وتحرير الانسان من طابع الاغتراب الذي أصبح يعانيه في ظل المجتمعات الصناعية المتقدمة، حيث سعت هذه النظرية إلى تجاوز أزمة العقلانية الحديثة التي جعلت من "تحرير الإنسان" و" تحقيق التقدم" و" السيطرة على الطبيعة " شعارا لها .

راهنت الحداثة على العقل على ذات عاقلة فاعلة، على كوجيتو يجعل الذات في المركز، على منطق التطور العقلاني للمجتمع والنظم الاجتماعية، على التفسير الخطي للتاريخ، على أساس ترسيخ المنهج التجريبي والانتقال من المعرفة التأملية إلى المعرفة العلمية، فكانت بمثابة إعلان حقيقي لمولد " الذات "و لمولد " الحرية " .

لقد كانت فكرة الحداثة في صورتها الأكثر طموحا هي التأكيد بأن الإنسان هو ما يفعل، وأنه يتطلب أن يكون هناك نوع من التقابل والتلاؤم المتسع بين الإنتاج، وتنظيم المجتمع بواسطة القانون، والحياة الشخصية التي تحفزها المنفعة وإرادة التحرر من الإكراهات، هذا التلاؤم بين ثقافة علمية ومجتمع منظم وأفراد أحرار يقوم على سيادة وظيفة العقل الذي يقيم تلاؤما بين الفعل الإنساني ونظام العالم[2].

وانطلاقا من هذه الخلفيات آمن الإنسان أنه بإمكانه ترسيخ مبادئ الحرية والديمقراطية، والأكثر من ذلك كان ينشد المستقبل ويؤمن بتحقيق التقدم والرفاهية،

وقد بدأت إرهاصات ما بعد الحداثة من نقطة الوعي بمشكلات الحداثة وعجزها على مسايرة الواقع بشروطه الجديدة، وتشكل النظرية النقدية واحدة من أهم التيارات الفكرية التي كانت أكثر وعيا بمشكلات الفردوس الأرضي الذي رسمته الأزمنة الحديثة والعصر الصناعي الذي دفع الإنسان لأن يطارد سراب التقدم والحرية ويؤمن بشعار العدالة والمساواة .

لا أحد يستطيع أن ينكر ما حققته العقلانية التقنية للإنسان، ولكن الحضارة الصناعية بقدر ما سعت لتحرير الإنسان بقدر ما فرضت عليه من القيود ما سلبه حريته الحقيقية، إن الأسس التي قامت عليها الديمقراطية السياسية أو الليبيرالية السياسية، وترسيخ النزعة الفردية في الحياة الشخصية، كلها كانت توحي أنها ستقرب البشرية أكثر فأكثر من تحقيق الحرية.

لقد استطاع الإنسان أن يطيح بسلطة الدولة المطلقة، بسلطة الكنيسة، بالسيادة المطلقة للطبيعة، لقد ظن الكثير أن الحرب العالمية هي الصراع النهائي وأن انتهاءها يعني الانتصار الأقصى للحرية، كما أن الصورة التي أعطيت للإنسان خلال القرون الأخيرة صورة كائن عاقل، تتحدد أفعاله بمصلحته الذاتية والقدرة على التصرف وفق هذه المصلحة .

إن الفكرة الأساسية التي ترسخت هي أن الإنسان يشعر بالأمن والثقة، فإنجازات الديمقراطية الحديثة قد ألغت كل الأخطار المحيطة بالإنسان، فالعالم قد أضحى جميلا آمنا، أشبه بالشوارع الجيدة الإضاءة في مدينة حديثة، عالم أصبح من المفروض فيه أن الحروب هي البقايا الباقية للعصور القديمة، وأن الإنسان محتاج إلى حرب واحدة أخرى لإنهاء الحرب .

ومع أننا فخورون كما يرى " إريك فروم " بأن الإنسان في سلوكه قد أصبح متحررا من السلطات الخارجية التي تفرض عليه " ما يفعله " وما " لا يفعله "، أي على الرغم من أننا قد سحرنا بنمو الحرية من القوى التي "خارج " أنفسنا إلا أننا مع ذلك عميان عن المحظورات والضغوطات والمخاوف الباطنية، التي تميل إلى تقويض معنى الانتصارات التي أحرزتها الحرية ضد أعداءها التقليديين[3].

لقد استطاع المجتمع الصناعي المتقدم أن يؤسس ما يسميه "هربرت ماركيز" "منطق الهيمنة " أو الطابع العقلاني للاعقلانيته، فباسم " العقل" و" الحقيقة "و"النظام" ظهرت أكثر الممارسات اللاعقلانية، وبات " اغتراب " الإنسان واستلابه في ظل شروط الإنتاج السمة التي تطبع العصر، وتدفع بالإنسان لأن يلهث وراء حاجات زائفة لا تعرف التحقق، بل أكثر من ذلك وبلغة " إريك فروم " لأول مرة في التاريخ، لم يعد إشباع دافع اللذة امتياز تتمتع به الأقلية، لقد اعتقد الإنسان أنه بتحطيم أغلال الإقطاع سيكون باستطاعته أن يحكم نفسه، وأن يتخذ قراراته، وأن يفكر ويشعر بمقدار ما يراه ملائما إلا أن ذلك ما لم يحدث...

الهيمنة ميكانزمات واستراتيجيات جديدة :

تشكل الآليات أو الميكانيزمات الجديدة في الهيمنة إحدى المنطلقات الكبرى في محاكمة مدرسة فرانكفورت للعقل الغربي، ذلك أنه وفي ظل " العقلانية التقنية " وفي ظل التطور العلمي والتكنولوجي ظهرت أساليب جديدة في الهيمنة **أكثر** من تلك التي حاولت فلسفة الأنوار تجاوزها .

لقد كان شعار السيطرة على الطبيعة " هاجس التنوير "، هاجس تحرير الإنسان وتحقيق الحرية والتقدم ولكن الذي حدث أن هاجس السيطرة على الطبيعة قد تحول إلى هاجس سيطرة على الإنسان، وبدل ذلك العقل التنويري الذي كانت غايته التحرر

من الهيمنة والأوهام والخرافات والأساطير، حل ذلك العقل الأداتي القائم على التسلط والسيطرة وتغريب الإنسان.

لقد استطاع الإنسان أن يطور وسائله المادية ولكن أصبح هو ذاته "وسيلة "بين الوسائل، خاضعا لشروطها، و جزءا من العملية الإنتاجية في ظل إيديولوجيات مسخرة لخدمة الربح.

لقد أضحت الآلة الاقتصادية كيانا مستقلا بذاته، بعيدا عن احتياجات الإنسان وإرادات البشر، إذ أصبحنا أمام نظام يستر ذاته وفق قوانين خاصة، أي لم يعد نمو هذا النظام الاقتصادي يجيب عن السؤال: " ما الذي يجب عمله لخير الإنسان ؟ إنما أصبح السؤال: ما الذي يجب عمله لخير النظام وتنميته "[4].

يبدو أن تأثير "كارل ماركس " كان واضحا على مدرسة فرانكفورت، فقد تحدث من قبل على الآثار السلبية للتطور التقني، من منطلق أن الإنسان العامل عند "ماركس" لا يكون تلقائيا إلا في وظائفه الحيوانية (الأكل، والشرب، والتناسل)، كما أن الإنسان لا يحقق ذاتيته في العمل بل ينفيها، ولا يشعر بالرضا بل بالتعاسة، والأكثر من ذلك فالمصادر الجديدة للثروة تتحول إلى مصادر للبؤس، والانتصار التقني هو انحطاط معنوي، والفكرة التي تعلمناها من "ماركس " هي أنه بقدر ما يصبح الإنسان سيدا ومالكا للطبيعة بقدر ما يصبح عبدا لأمثاله.

وعلى الرغم من حضور الطرح الماركسي في فكر مدرسة فرانكفورت، إلا أن أعلامها أعادوا طرح هذا الهم المعرفي من خلال المعاناة الحضارية والثقافية الجديدة في ظل التحولات التكنولوجية والاجتماعية،إن الصورة القاتمة للحضارة الصناعية المتقدمة هي صورة " إنسان " يعيش الاغتراب والاستلاب بكل أبعاده، ومن هذا المنطلق يمكن القول أنه إذا كان " كارل ماركس " قد عاش في مرحلة كانت فيها الطبقة العاملة هي

الطبقة التي تعاني من التبعية الاقتصادية وعلى هذا الأساس كانت كما يرى " ماركس " هي أكثر الطبقات " اغترابا "، فإنه في الجهة المقابلة مدرسة فرانكفورت تريد أن تكشف أن هذا الاغتراب قد أصبح اغترابا بكل معانيه، كما أنه لم يعد مرهونا بالطبقة العاملة بقدر ما أصبح هو السمة التي تطبع الحياة الإنسانية عامة.

إن الفكرة الأساسية التي تنطلق منها النظرية النقدية هي أن ما يمتلكه المجتمع الصناعي المتقدم من طاقات مادية بل ومن طاقات فكرية ذهنية تتجاوز بشكل كبير ما تمتلكه المجتمعات السابقة، مما يجعل أساليب الهيمنة في المجتمع الصناعي المتقدم أشد وأقوى من كل الأساليب التقليدية في الهيمنة، وفي هذا السياق يمكن الإشارة مع " هربرت ماركيز " إلى عاملين أساسيين:

أولا: خاصية المجتمع الصناعي المتقدم " الطابع السلعي "، هذه السلع والحاجات تربط الجماهير بالنظم السائدة وتقوم بعملية احتواء عقلي وغريزي للطبقات الكادحة، وفي النهاية معظم الكادحين اليوم من البروليتارية في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة يشاركون الطبقات الوسطى حاجاتهم واهتماماتهم، إذ كلما ازدادت مقدرة السادة على توزيع المنتجات الاستهلاكية ازداد ارتباط الجماهير الخاضعة بمختلف أشكال البيروقراطية الحاكمة .

إن " وسائل النقل والاتصال الجماهيري والتسهيلات المتعلقة بالسكن والطعام والملبس، والإنتاج المتعاظم لصناعة أوقات الفراغ والإعلام،إن كل ذلك تترتب عليه مواقف وعادات مفروضة وردود فعل فكرية وانفعالية معينة تربط المنتجين بالمستهلكين"[5]، والنتيجة الحتمية لذلك هي استقطاب الطبقات الكادحة عبر استهداف بنيتها الغريزية والعقلية.

وإذا كان الفرق بين الكينونة وبين التملك هو فرق بين مجتمع محوره الأساسي " الإنسان " وآخر محوره الأساسي " الأشياء" فإن ما يميز المجتمع الصناعي المتقدم هو التوجه نحو " التملك "، حيث أصبحت شهوة تملك المال، الشهرة والسلطة هي المواضيع المسيطرة على الحياة.

المجتمع الصناعي هو مجتمع مكرس لحيازة الأملاك وتحقيق الربح، لذلك من النادر أن نرى ما يثبت وجود أسلوب الكينونة في الحياة، إن:" الناس ينجذبون اليوم لكل ما هو ميكانيكي آلي، للآلة الجبارة ولما لا حياة فيه، وينجذبون يوما بعد يوم للتدمير"[6]، بل الأكثر من ذلك لا يرى أغلبية الناس إلا أسلوب التملك بوصفه الأسلوب الأنسب للوجود .

من ناحية أخرى يمثل الطابع التكنولوجي للمجتمع الصناعي المتقدم العامل الأساسي الآخر المتحكم في الهيمنة، فالتطور التقني يمتص كافة التناقضات الاجتماعية، ويقضي على كل أساليب الثورة والرفض والاحتجاج، إن التكنولوجيا تفعل ذلك من خلال إخضاع الجماهير للتقسيم الاجتماعي للعمل، وخلق الوفرة المادية، إنها بهذا الأسلوب وهذه الاستراتيجية تجرد مسبقا كل احتجاج أو معارضة من سلاحها، إن الهيمنة في المجتمع الصناعي المتقدم قد باتت تستهدف أكبر قدر ممكن من الطبقات الاجتماعية، مستخدمة في ذلك استراتيجيات قوية ومدروسة في التأثير على الأبعاد الغريزية والعقلية للإنسان .

عالم يكبح أساليب المعارضة :

إن عقلانية المجتمع المعاصر وتقدمه وتطوره هي **في مبدئها لاعقلانية** [7]، لذلك ليس غريبا أن يصبح القمع ولأول مرة في تاريخ البشرية قمعا مقبولا يدافع عنه ضحاياه بأنفسهم، ذلك أن القمع لم يعد قمعا خارجيا يستهدف حرية الإنسان السياسية والاقتصادية فقط،بل إن هذا القمع اغتصب حرية الإنسان الداخلية التي كانت قبل الحرب العالمية الثانية آخر و أشد الحصون التي لا يجرؤ المجتمع البورجوازي اقتحامها .

المجتمع المعاصر " مجتمع بلا معارضة " أو مجتمع تخذر فيه النقد كما يصف " هربرت ماركيز " ذلك أن التقنية باتت تفسح المجال لأشكال جديدة من الرقابة، فالهيمنة " عقلانية " لدرجة ليس لها مثيل ولا سابق لها، إن المجتمع الصناعي المتقدم وبحكم

تنظيمه لقاعدته التكنولوجية يميل إلى النزعة الاستبدادية، إن الآلة قد غدت أنجع أداة سياسية.

يعتبر المجتمع التكنولوجي نظام سيطرة، ونزعة الهيمنة فيه ليست مجرد شكل حكومي، أو حزب سياسي وإنما تنبثق من نظام نوعي للإنتاج والتوزيع، ذلك أن الإنتاجية ووسائل التدمير تنمو بوتيرة واحدة، والبشرية مهددة بدمار شامل، كما أن " الفكر والأمل والخوف رهن بإرادة السلطات "[8].

وفي هذا السياق يشكل التهديد الخارجي واحدا من أهم الاستراتيجيات في الهيمنة، فالتهديد الخارجي في المجتمعات المعاصرة يحظى بالأولوية والاهتمام : تهديد الغرب للشرق، تهديد الشرق للغرب فضلا عن التهديدات المتعلقة بالقنابل الذرية التي تهدد البشرية [9]، وعلى هذا الأساس فالأنظمة القائمة تدفعنا لأن نكون دائما على أهبة الاستعداد لمواجهة ما يهددنا خارجيا–حتى وإن اصطنعت هذا التهديد الخارجي– لنغفل في الوقت ذاته على ما يهددنا داخليا، وهكذا **وراء** مواجهة الأخطار والتحديات، **وباسم تحرير** الإنسان يقهر الفرد وتقمع الحريات.

الإنسان الأبله ... الجماهير والدفاع عن الهيمنة:

الإنسان الحديث غير سعيد في الأعماق -كحقيقية واقعة- إنه يتمسك **يائسا** بفكرة التفردية، إنه يتشوق للحرية، ولكن لما كان إنسانا آليا فإنه لا يستطيع أن يعيش الحياة، أن يعيش النشاط التلقائي، ذلك أن التطور التكنولوجي يخضع الفرد للسيطرة والتحكم والتوجيه، إن هذا التطور يستحوذ على الفرد فيجعله أحد عناصر بنيته .

إن سيطرة الإنسان على الإنسان ما تزال تمثل في الواقع الاجتماعي استمرارا تاريخيا، ومع ذلك فإن أساليب السيطرة قد تغيرت، إذ لم تعد التبعية شخصية (العبد للسيد، الخادم لصاحب القصر ...) بل نتوجه نحو التبعية "لـ " نظام أشياء موضوعي " (القوانين الاقتصادية، السوق...)، إن الأخطر من ذلك هو أن السيطرة قد أصبحت

تعتمد على درجة أكبر من العقلانية، عقلانية مجتمع يدافع عن بنيته الهرمية، ويستغل بعنف الموارد الطبيعية و يوزع أرباح هذا الاستغلال.

لقد استطاعت العقلانية التقنية أن تؤسس منطق للهيمنة، وذلك بتحقيقها لتوازن مرعب بين الحرية والاضطهاد، بين الإنتاجية والتدمير،بين التقدم والانتكاس، إن كل الجرائم والمظالم المقترفة بحق الإنسانية تسوى اليوم وتبرر من قبل بيروقراطية وتنظيم عقلانيين،إن: " هذا العالم العقلاني يسد منافذ الهروب جميعا بحكم ثقل جهازه"[10]، إن العقلانية التكنولوجية لا تضع مشروعية السيطرة موضع اتهام وإنما تحميها .

يرى " هوركهايمر " و" أدورنو " أن الجماهير قد أصبح لها استعداد خاص بتقبل الاستبداد، كل ذلك تحت أساليب واستراتيجيات خاصة: " إن الاستعداد الغريب الذي تظهره الجماهير التي اكتسبت تربية تقنية من خلال إعجابها بأي نوع من الاستبداد وصلاتها التدميرية الذاتية بالترابط مع شعور عرقي بالعظمة، كل هذه الأمور العبثية غير المفهومة إنما تفصح عما أصاب العقل النظري حاليا من ضعف "[11].

وفي هذا السياق تلعب وسائل الإعلام دورا خاصا في الهيمنة، إذ تقوم هذه الوسائل وعلى اختلاف أنواعها بتغليف أساليب الهيمنة بطابع عقلاني، فهي بذلك تصنع وعيا زائفا، وتبعد الجماهير عن حاجاتهم الحقيقية، إن صناعة الإعلام والدعاية قد فرضت مقتضياتها وأصبحت تغذي الميل إلى التنميط أو التطابق بكل ما تحمله هذه الكلمة من آثار سلبية على الحياة الثقافية، السياسية والاقتصادية.

وعلى هذا الأساس فإن وسائل الاتصال الجماهيري التي تقوم بدور الوساطة بين الحاكم والمحكوم مشبعة بهذه البنية الفوقية الإنتاجية القائمة على قاعدة المجتمع التعيسة على حد تعبير " ماركيز "، ذلك أن عالم الاتصال هو عالم من العوالم التي يترجم فيها السلوك الأحادي البعد، فلغة هذا عالم الإعلام والاتصال هي لغة توحد وتوحيد، إذ تستخدم في ذلك عناصر التضليل الأسطوري في الدعاية والإعلان والسياسة، تضليل

يحس الناس من خلاله بالنشوة، ويشهدون بالإنجازات العقلانية التي تحجب لا عقلانية مجمل النظام .

وانطلاقا من لغة التضليل واللغة السحرية الاستبدادية التي تستعملها وسائل الإعلام فإن التوتر بين الظاهر والواقع، بين المفعول والفاعل، بين الموصوف والصفة يميل إلى التلاشي و الزوال، فعلى أساس الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام والنظام السياسي يتلقى الإطار الاجتماعي مجموعة من الصيغ المخادعة (ألفاظ مثل الحرية، المساواة، الديمقراطية، السلم، الانتخابات الحرة، المشروع الحر، الفرد الحر ...)، والأكثر من ذلك فإن: " الرأي العام والخاص بات يقبل بصورة عامة بهذه الأكاذيب، كما أن بشاعة مضمونها لم تعد ظاهرة للأنظار"[12].

وإذا كانت لغة السياسيين تميل إلى الاتحاد بلغة الإعلان، فإن الصراع الذي أوجدوه يأخذ أبعادا عالمية وطرق الإبادة الذي اختلقوها في تطور، كما أن استقلالهم عن الإرادة الشعبية في تزايد، أما السيطرة التي يمارسونها فقد باتت منقوشة في نشاطات الأفراد، وفي ظل هذه الأوضاع أصبحت رموز السياسة رموز أعمال وتجارة وإلهاء[13]، هذا المجتمع الذي أصبح يرتكز على الملكية الخاصة، على الربح والسلطة، هذا المجتمع الذي نجد أن الحقوق المقدسة والمسلم بها لدى الفرد هي حقوق التملك، الاقتناء وتحقيق الأرباح .

الطاقات المادية والفكرية للمجتمع الصناعي المتقدم تفوق بكثير ما كانت عليه المجتمعات السابقة من حيث النضج الطبيعي والتقني مما يجعل أساليب الهيمنة في هذه المجتمعات أكبر وأخطر من سابقتها، فالتكنولوجيا ليست محايدة بقدر ما تقتل الحرية الفردية، وتحول ما هو كمالي إلى ضروري وتكشف عن أساليب جديدة من الرقابة الاجتماعية.

الإنسان الآلي كما يسميه "إريك فروم"بينما هو "حي" بيولوجيا، فإنه "ميت" انفعاليا وذهنيا، ذلك أن الإنسان فقد ذاتيته، لم يعد يستطيع أن يتأكد من نفسه إلا إذا عاش حسبما يتوقعه الآخر، وعلى الرغم من أن هذا قد يحقق له نوعا من الأمن والأمان إلا أن التنازل على التلقائية والفردانية يفضي إلى انجراف الحياة،و الأخطر من كل هذا هو أن يأس الإنسان الآلي هو أرض خصبة للأغراض السياسية والفاشية.

إن مجتمع " البعد الواحد " كما يطلق عليه " هربرت ماركيز " يستهدف استئصال البعد الداخلي أو البعد النافي للإنسان، بعبارة أخرى يمكن القول أن الإنسان يصبح ذا بعد واحد عندما يفقد قدرته على النفي ومعارضة النظام القائم، فالبعد الواحد يمثل البعد المتكيف والمتصالح مع الواقع مهما كانت طبيعتة حتى وإن كان يشكل خطرا على كيانه .

تتجلى أزمة الحداثة في جانب من جوانبها في كون الإنسان لم يعد يفهم ما يريد، ولم يعد يعتقد أن بإمكانه أن يعرف ما هو خير وما هو شر، ما هو صحيح وما هو خاطئ [14]، فالأنظمة الاستبدادية في الدولة الحديثة عملت على تكريس عقلانية خادعة ومزيفة، تأسست في خدمة نظم سياسية وطبقات اجتماعية معينة.

وفي هذا السياق يمكن القول أنه إذا كانت العبودية لا تتحدد بالطاعة وإنما بالإنسان المحول إلى أداة أو إلى شيء، كما أن الضمير السعيد الذي يعتقد بأن الواقعي عقلاني، وبأن النظام سيحقق حاجات الإنسان ومتطلباته هو خير دليل على الامتثالية أو الطاعة الجديدة، ومن هذا المنطلق فإن : " عبيد الحضارة الصناعية المتقدمة هم عبيد متسامون، ولكنهم يبقون عبيدا "[15]، ذلك أن المنتجات تكيف الناس مذهبيا وتصنع وعيا زائفا .

إنسان البعد الواحد كما وصفه "هربرت ماركيز "نصف أبله، إنسان يفقد قدرته على المعارضة، عاجز حتى على مجرد إحساسه بالاغتراب،إن الإنسان الذي يحيا في مثل هذا العالم لا يملك إلا أن يحمل العالم الخارجي داخل أعماقه، وأن يتمثله في

أفعاله بحيث تصبح توجهاته كلها أنماطا من الخضوع لما يريده العالم الخارجي الذي يحيطه إطار محكم من العقلانية التكنوقراطية، إن تنظيم الحياة وفق التنظيم والتحكم في الطاقات البشرية يمثل تقييدا لهذه الحياة، بل يمثل قتلا لها .

إن الناس قد باتوا يتعرفون على أنفسهم في سلعهم، إنهم يجدون روحهم في سياراتهم، وفي جهاز التسجيل، والمنزل المريح، وأدوات الطبخ، لقد تغيرت الآلية التي تربط الفرد بالمجتمع، واستقرت السيطرة الاجتماعية داخل الحاجات الجديدة التي ابتكرتها، وهذا الحكم ينطبق على الأنظمة الرأسمالية كما ينطبق على الأنظمة الاشتراكية كذلك، إذ وعلى الرغم من الاختلافات الجوهرية بين هذه الأنظمة إلا أن هناك الكثير من أبعاد التشابه كالمركزية والتنظيم والمنافسة المنظمة والمعقلنة، فالناس متماثلون بفعل وسائل الإعلام الجماهيرية وصناعة وسائل التسلية والتعليم.

تنميط الحياة وإعادة تشكيل البشر:

لم تصل تقنية الصناعة الثقافية حتى أيامنا هذه إلا إلى جعل الإنتاج إنتاجا مقننا، أي صناعة أشياء متماثلة، مضحية بكل ما يشكل فارقا بين منطق العمل ومنطق النظام الاجتماعي "[16]، لقد أدمجت الثقافة بما هو قائم، حيث تمت إعادة إنتاجها وتوزيعها بشكل جديد، إن تقدم المجتمع التقني ألغى المسافة الجوهرية القائمة بين الفنون وبين ما هو قائم، فالثقافة قد توحدت مع الواقع القائم، ومعها اختفت العناصر المعارضة والمتعالية التي بفضلها كانت الثقافة الراقية تشكل البعد النافي اللامتماهي مع الواقع .

إن الثقافة اليوم قد باتت أكثر خضوعا للصيغة من خضوعها للأثر الفني "[17]، بل الأكثر من ذلك أصبحت الثقافة شكلية بعيدة عن المحتوى الحقيقي الذي كان ينبغي أن تعبر عنه، والأخطر ما في الأمر أن التناحر الموجود بين ما هو ثقافي والواقع الاجتماعي لم يعد كما كان سابقا .

وفي هذا السياق فالمنتجات الثقافية والأفلام والبرامج الإذاعية والمجلات تحيل على نفس العقلانية التقنية، ونفس الصيغ التنظيمية والتخطيط الإداري المتبع في الإنتاج الصناعي للسيارات أو المشاريع الحضرية، لقد تم الإعداد لكل شيء مسبقا ليجد كل

فرد ما يناسبه بحيث لا يستطيع أحد الفرار، حتى اللغة ذاتها فقدت طابعها الجدلي النافي في مجتمع البعد الواحد .

الحضارة المعاصرة تضفي على كل شيء مسحة تماثلية تطابقية، فالصناعة الثقافية توصل بضائعها المتماثلة في أي مكان ملبية حاجات كثيرة متنوعة، معتمدة في ذلك على معايير إنتاجية موحدة في إشباع هذه الطلبات، وبلغة الفيلسوف الفرنسي " جان فرنسوا ليوتار: "فإن الانتقائية أضحت هي" درجة صفر للثقافة العامة المعاصرة"[18].

إن عملية قولبة أو تشكيل البشر تتم بصيغ وآليات عميقة، إن الأخطر من ذلك كما يؤكد " ماركيز " في كتابه " إيروس والحضارة " هو أن عملية القولبة أو التشكيل لا تتوقف على السطح الخارجي للشخصية بقدر ما تنفذ إلى أعماق الغرائز الإنسانية، فالواقع التكنولوجي جعل من أفعال الإنسان أشبه ما تكون بالأفعال الميكانيكية .

المجتمع الصناعي أضفى صفة الحاجة على ما هو زائد عن الحاجة، بل من إفرازات هذا المجتمع هو أن الحاجات الزائفة قد أضحت أقوى وأكثر طلبا من الحاجات الحقيقية للفرد، الذي يسعى بكل الأساليب لتحقيقها، إن نزعة الهيمنة ليست مجرد تنميط سياسي إرهابي، بل إلى جانب ذلك هي تنميط اقتصادي تقني –غير إرهابي– يؤدي دوره عن طريق تحكمه بحاجات الأفراد باسم مصلحة عامة زائفة، إن البشر يدورون في نسق آلي من العقوبات والمكافآت، وسائر الوسائل تكفل استمرار هذا الجهاز في الدوران بشكل مستقل.

وهكذا عندما استطاع المجتمع الصناعي المتقدم أن يحول عالم الأشياء إلى بعد للجسم أي إلى امتداد له وللروح، وعندما أصبحنا نعيش في هذا المستوى " أصبح مفهوم الاستلاب مفهوما إشكاليا "[19]، " إن الناس كما يرى " ماركيز " يجدون جوهر روحهم في سيارتهم، وجهازهم التلفزيوني، وبيتهم الأنيق وأدوات طبخهم الحديثة، وفي كل هذا فإن الرقابة الاجتماعية قد باتت تحتل مكانتها في قلب الحاجات الجديدة التي ولدها المجتمع الصناعي المتقدم .

وعلى الرغم من أنه يصعب وضع معايير عامة من خلالها نصنف طبيعة الحاجات: هل هي " حقيقية " أو " زائفة "؟، إلا أن مسألة التحديد مرتبطة " بأولوية معايير ذات صلة بالتطور الأمثل للفرد وبجميع الأفراد"، إن الحاجات الزائفة بمنظور " هربرت ماركيز " هي تلك التي: " تفرضها مصالح اجتماعية خاصة على الفرد "[20]، إذ وعلى الرغم كذلك من أن مثل هذه الحاجات قد تحقق نوعا من السعادة بالنسبة للفرد، إلا أنه ليس من الواجب أن نرضى بها أو ندافع عنها لأنها تخفي الحاجات الحقيقية للإنسان.

إن هذه الحاجات الزائفة هي تلك الحاجات التي لها وظيفة ومحتوى اجتماعي، إذ تحددها قوى خارجية ليس للفرد عليها من رقابة لأن تطورها وتلبيتها رهن بإرادة خارجية غريبة، وما يميز المجتمع الصناعي المتقدم هو الطريقة التي يخنق بها الحاجات التي تتطلب التحرر –الحاجات الحقيقة– وتأييده لقوى التدمير .

ما يمكن أن نقوله في الختام أن السعي لتوحيد المتطلبات الانسانية وتوسيع دائرة السلوك الاستهلاكي، وأساليب القضاء على البعد النافي للإنسان، ومحاولة دمج الأفراد المهيمن عليهم بالقوى المهيمنة، ودفعهم للتكيف مع ما هو قائم عبر استراتيجيات عقلانية تخفي لاعقلانية النظام، وخلق ثقافة جماهيرية خاضعة للتنميط، واقتحام عالم الصناعة لعالم الثقافة والفنون، كل هذه المحطات النقدية الهامة التي تستوقفنا عندها النظرية النقدية تكشف عن تحليل عميق لما آل إليه المشروع الحداثي الغربي.

وعلى الرغم من أن مدرسة فرانكفورت تعرضت لبعض الانتقادات والمراجعات خاصة في نظرتها السوداوية القاتمة لفلسفة الأنوار والعقل الأداتي –كما نجد في النقد الذي يقدمه "يورغن هابرماس"مثلا من منطلق أن الحداثة مشروع لم يكتمل"– إلا أنه ليس من السهل أن نلخص كل الأفكار الثورية التي حملتها مدرسة فرانكفورت مع " ماكس هوركهايمر "و"هربرت ماركيز" و"ثيودور أدورنو" وإريك فروم" ... في كشف النقاب على وجه آخر للعقل الغربي.

لقد ساهم كل من " فريديريك نتشه "،"سيغموند فرويد"، " كارل ماركس"، و"مارتن هيدغر " ... في بلورة الخطابات النقدية الجديدة في الفكر الفلسفي المعاصر وقد كان للنظرية النقدية كبير الأثر في ذلك، بتحليل عميق للوضع الإنساني ودراسات استشرافية لا تزال الكثير من أجوبتها تجيب عن أسئلة الراهن السياسي والثقافي.

الهوامش:

(1)- ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو، **جدل التنوير**، ترجمة جورج كتورة، (بيروت : دار الكتاب الجديد، 2006)، ص 13 .

(2)- Alain Touraine **Critique de la modernité**, fayard, 1992, p11.

(3)- إريك فروم، **الخوف من الحرية**، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، ط1، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972) ص90،91 .

(4)- إريك فروم، **الإنسان بين الجوهر والمظهر**، ترجمة سعد زهران (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989)، ص21.

(5)- هربرت ماركيز، **الإنسان ذو البعد الواحد**، ترجمة جورج طرابيشي، ط3 (بيروت : منشورات دار الآداب، 1988) ص 47، 48 .

(6)- إريك فروم، **الإنسان بين الجوهر والمظهر**، ص22.

(7)- هربرت ماركيز، **الإنسان ذو البعد الواحد**،، ص 30 .

(8)- المصدر نفسه، ص 30.

(9)- المصدر نفسه، ص 25.

(10)- المصدر نفسه، ص 107.

(11)- ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو، **جدل التنوير**، ص 16 .

(12)- هربرت ماركيز، **الإنسان ذو البعد الواحد**، ص 25، 26.

(13)- المصدر نفسه، ص 141.

(14)- ليو ستروس" **موجات الحداثة الثلاث** "، ترجمة مشروحي الذهبي، مجلة فكر ونقد،(المغرب، دار النشر العربية،ع2، أكتوبر 1997)، ص124.

(15)- هربرت ماركيز، **الإنسان ذو البعد الواحد**، ص 48 .

(16)- ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو، **جدل التنوير**، ص 143 .

(17)- المصدر نفسه، ص 147.

(18)- Jean François lyotard , **Le Postemoderne expliqué aux enfants**, Paris : éditions Galilée,1988.p17 .

(19)- هربرت ماركيز، **الإنسان ذو البعد الواحد**، ص 45 .

(20)- المصدر نفسه، ص 41.